محكم

تفسير البيـضاوي
"أنوار التّـنزيل وأسرار التّأويل"
بين سلـطة النـص المُقدس وسلـطة الواقع المعرفي

محمد إدريس
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

ملخص:

إنّ المفسّر عندما يسعى إلى تبيّن معاني الكلام الإلهي، لا يمتح من فراغ؛ فباعتباره قارئا للنص المقدّس فإنّه لا يشرح النّصّ المقدّس، وإنّما يعيد كتابته، وهو ما يعني بالضرورة أنّ المُفسّر - وعى بذلك أم لم يع - يمارس سلطة على النّصّ المقدّس، على أنّ للمسألة بعدا آخر يتجلى في تأثير النص المقدّس في رؤى المفسّر وأساليب الكتابة التي يعتمدها، وهو ما يجعل العلاقة القائمة بين المفسّر والنص المقدّس علاقة جدليّة.

ونحن إذا ما تأمّلنا كتب التفسير، ألفيناها موصولة بالنص المقدس حينا، وبالمرجعية الثقافية والمذهبية حينا آخر، وهو ما يجعل البحث في روافد النص التفسيري مسألة معقّدة، تتطلب تفكيكه وتبيّن الطبقات التي قُدّ منها، وفي ما يتعلّق بهذه المسألة، نتناول بالتحليل:

1/ نص العنوان

2/ نص الخطبة

3/ بعض التّفاسير للآيات المتعلقة بالإرادة الإلهية والإرادة البشرية

ونروم من خلال النظر في تلك النصوص، تبيّن أهمّ الخلفيّات المُتحكّمة في عملية قراءة المُفسّر للنص المقدّس مع الوقوف على درجة وعيه بسلطة المرجع الثقافي والمذهبي والواقع المعرفي؛ ففي تلك النصوص إشارات عديدة دالة على انشداد البيضاويّ إلى أفق الثّقافة الشّفويّة من جهة، وتأثره بأساليب الكتابة في عصره (العصر المملوكي)، ومراوحته في بعض المواضع بين تصورات كلامية متباعدة، على أنّ للبحث غايات أخرى منها ضرورة الوعي بطبيعة السلطة التي مارسها المُفسّر لتوجيه القرّاء، انطلاقا من الزعم بأنّه يمتلك "أسرار التأويل"، وهي رؤية انتهت إلى اعتبار نصّ التّفسير صدى للنّصّ المقدّس لا سبيل إلى إدراك معاني الثاني لم نقرأ الأوّل (نص التفسير).

على سبيل التقديم:

النّصّ والقراءة من أكثر المباحث إثارة للجدل بين المشتغلين بنظريّات النّصّ وعِلمه، ذلك أنّ للمسألة وجوها عديدة متداخلة الأبعاد مترامية الأطراف شديدة التّعقيد، تتجاذبها مطارحات متباينة على أكثر من صعيد معرفي(السّيميائية، التّداولية،...).

على أنّ الثّابت أنّ كلّ قراءة أيّا كانت مرجعيّتها ودوافعها، تظلّ محاولة لبلوغ المعاني الأولى للنّصّ، وذلك بفهم مضامينه وكشف ما ظلّ طي الكتمان فيه، فإذا بالنّصّ عالم مصغّر يحتضن عوالم أخرى، يُسمّي بعضها ويحجب أكثرها، وإذا بالقراءة إعادة إنتاج للنّصّ الأصلي، وفي هذا السياق ننزّل دراستنا كتب التّفسير بوصفها ضربا من ضروب النّصيّة الواصفة[1] الّتي تشرح النّصّ المقدّس، بيد أنّه من الضّروري الإشارة إلى أنّها لا تشرح النّصّ المقدّس ولا تصفه، بقدر ما تعيد كتابته بطريقة جديدة؛ فالمُفسّر يمارس سلطة على النّصّ المقدّس تجعله يصرّح بما أراد له المُفسّر أنْ يصرّح به.

لقد كانت علاقة المُفسّر بالنّصّ المقدّس علاقة جدليّة؛[2] فهو يُؤسس نظرته للوجود وللإنسان ولعالميْ الغيب والشّهادة...، وفق ما استقرّ في النّصّ المقدّس من تمثّلات، على أنّ النّصّ المقدّس يمثّل بدوره فضاء حاضنا لتصوّرات المُفسّر؛ فهو "خطّ مسطور بين الدّفتين لا ينطق بلسان ولابدّ له من ترجمان، وإنّما تنطق عنه الرّجال".[3]

إنّ هذه العلاقة الجدليّة بين المُفسّر وواقعه من جهة، وبين المُفسّر والنّصّ المقدّس من جهة أخرى، تتجلّى في نص التّفسير عنوانا وخطبة ومتنا متّخذة أكثر من شكل، وهو أمر نسعى إلى تبيّن أبعاده بالنظر في تفسير البيضاوي الموسوم بـ"**أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل**".

وفي هذا المقال، نقف على تجلّيات هذه العلاقة الجدليّة وترصد الآليات المُتحكّمة في عملية قراءة النّصّ المقدّس من قبل المُفسّر وما يتبعها من تأليف من خلال نص العنوان ونص الخطبة وبعض التّفاسير للآيات.

---

[1]- يُعدّ جيرار جينات Gérard Genette أبرز من تناول بالدرس أشكال النص وعتباته، وقد عالج هذه المسألة ضمن ما سمّاه بالتّعالي النّصيTranstextualité؛ أي كل ما يجعل النص في تواصل دائم مع نصوص أخرى-بصورة مباشرة أو غير مباشرة-، وقد بيّن خمسة أشكال:

أ: التداخل النصي: L'intertextualité (الشاهد...).

ب: النصية الحافة – المصاحبة La Paratextualité :(العنوان –المقدمة.....)

ج: النصية الواصفة- اللاحقة: Métatextualité (كتب التفسير- النقد الأدبي.....)

د: المماهاة النّصيةL'Hypertextualité (المحاكاة- المعارضة....)

هـ: النصية الجامعةL'architextualité بدلا من مقولة الأجناس الأدبية

Voir Genette (Gérard): Introduction a L'archi texte,Seuil, Paris, 1979

[2]- الشرفي (عبد المجيد): **الإسلام والحداثة**، الدار التونسية للنشر، سلسلة موافقات، تونس1991، ص 64

[3]- ابن أبي طالب(علي): **نهج البلاغة**، تقديم محمد عبده، مراجعة وتحقيق علي أحمد حمّود، المكتبة العصرية، صيدا لبنان، 2005، ج2، ص 187

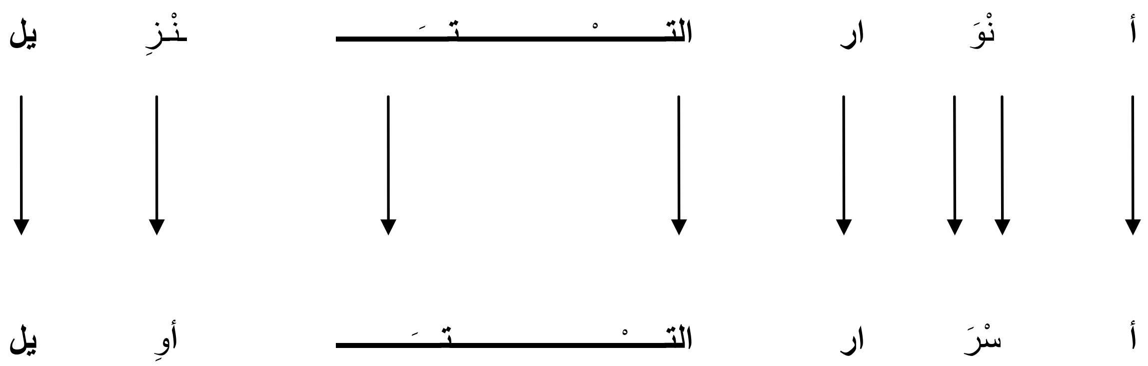
نصّ العنوان بين سلطة النّصّ المقدّس وسلطة الواقع المعرفي:

إنّ الاهتمام بالعنوان من مكاسب المدرسة التّفكيكية الّتي جعلت من الهامش صنوا للمتن لا يقلّ عنه شأنا، ومن مظاهر ذلك أنّنا نتحدّث اليوم عن علم للعناوين Titrologie.

إنّ نصّ عنوان كتاب البيضاوي "أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل" نصّ واصل بين فضاءين/عالمين مختلفين، هما: عالم الإله/الغيب (التّنزيل) وعالم الإنسان/عالم الشّهادة (التّأويل)، وهو عنوان جامع لفعلين؛ أوّلهما إلهي يتمثّل في نزول الوحي، وثانيهما ما يبذله الإنسان من جهد ذهني في سبيل الإحاطة بمعاني الوحي الإلهيّ.

إنّ جمع العنوان بين هذه العناصر يتجاوز دلالة المقابلة إلى ما يمكن تسميته بـ"التّصادي الدّلالي"؛ فنحن إذا ما قابلنا بين جُزأيْ المركّب الاسميّ بالعطف المُكَوّن للعنوان ألفينا مطابقة المعطوف عليه للمعطوف في مستوى التّركيب، وفي مستوى الصّيغ الصّرفية وأوزانها، فلقد ورد المعطوف عليه "أنوار التّنزيل" والمعطوف "أسرار التّأويل" في شكل مركّب اسميّ بالإضافة، ورد فيه المضاف مفردة دالة على الجمع على وزن أَفْعَالُ[4] (أنوار/ أسرار)، وفي المقابل ورد المضاف إليه مصدرا مُعرفا بالألف واللاّم على وزن التّفعيل[5] (التّنزيل/ التّأويل).

إنّ هده الموازنة التّركيبيّة والصّرفيّة تدعّمها لعبة الأصوات والأجراس؛ فالبيضاويّ وظّف أصواتا متقاربة المخارج، على النّحو الّذي يوضّحه الرّسم الآتي:



[4]- تدلّ صيغة أَفْعَالُ في اللغة العربية للدلالة على جمع القلّة.

[5]- التّنزيل مصدر لفعل رباعي صحيح الآخر،هو نزّل،أمّا التّأويل، فهو مصدر لفعل رباعي صحيح الآخر هو أوّل.

إنّنا نلحظ مطابقة تامة في مستوى الحركات بين مُكوّنيْ المركّب الاسميّ العطفيّ (المعطوف عليه/ المعطوف) واختلافهما اليسير في بعض الحروف، ممّا يجعل الأصوات متكرّرة كأنّ أصوات المعطوف صدًى لأصوات المعطوف عليه.

إنّه لمن اليسير ردّ هذه الظّاهرة إلى طبيعة الكتابة الأدبيّة في عصر المُؤلّف - القرن السابع من الهجرة -[6]؛ فالإفراط في استخدام المحسنّات البديعيّة المعنويّة واللفظيّة من سمات العصر المملوكي[7] - إذ شُغف أدباء تلك الحقب بالظواهر البديعية متّخذين منها أسسا للكتابة -، على أنّنا نرى للمسألة بعدين آخرين: أوّلهما يتمثّل في وعي البيضاويّ بدور الأصوات في التّأثير في السّامع شأنها في ذلك شأن الصّورة الشّعريّة...

أمّا البعد الثّاني، فيتمثّل في نزوع البيضاويّ إلى محاكاة الأسلوب القرآنيّ المكيّ أكثر من خضوعه لسنن الكتابة في عصره، ونحن لا نستبعد أنْ يكون المُؤلّف غير واع بذلك.

إنّ الاعتناء بالظّواهر الإيقاعيّة في نصّ العنوان من شأنه أنْ يسهم في الإيقَاعِ بالقارئ[8] من خلال مخاطبة حواسه (السّمع) من جهة، ومن شأنها أنْ تخلق صلة وثيقة بين القارئ والمُؤلّف من جهة أخرى، ممّا يجعل عمليّة القراءة - في جزء منها - قراءة غير واعية تتأسس على البعد الوجدانيّ أكثر من خضوعها لسلطة العقل.

نصّ العنوان من هذه الزّاوية طريقة لاستدراج القارئ إلى متن الكتاب؛ فهو (العنوان) يُعدّ القرّاء لتقبّل محتوياته على النّحو الّذي أراده المُؤلّف، فهو من هذه الوجهة يمهّد الطّريق للمتن، ونعني بالمتن تفسير آي القرآن الكريم.

إنّ العنوان هو خيار من خيارات عديدة يفترض أنْ يكون البيضاويّ فكّر فيها واضعا في حسبانه ما يمكن أنْ يستنتجه القارئ من كلّ عنوان؛ فالعنوان عامل ينفّر أو يرغّب، وهو أوّل ما تقع عليه العين أو ما تصغي إليه الأذن، فإمّا أنْ يشدّ القارئ فيواصل القراءة، وحينها يتمّ الإيقَاعُ به، وإمّا أنْ ينفر فيضْرب عن القراءة، فيكون الفراق والبين بينهما دون رجعة.

ولعل البيضاوي كان واعيا بقسم كبير من هذه المعطيات، ولاشكّ أنّه كان يسعى لحظة وضعه العنوان إلى تحقيق أمرين، هما: إيجاد صلة بين نصّ العنوان والقارئ من جهة، ومن جهة أخرى إيجاد صلة بين نصّ العنوان ونصّ المتن.

---

[6]- نشير في ما يتعلق بالقرن الذي عاش فيه البيضاوي إلى أنّ أغلب دور النشر التي تولّت طباعة كتاب"أنوار التنزيل وأسرار التأويل" أثبتت سنة791هـ تاريخا لوفاة البيضاوي، وهو أمر مجانب للصواب، ذلك أنّ البيضاوي توفي في الفترة الممتدة بين 685 هـ و691هـ.

[7]- يمتدّ العصر المملوكي من (656هـ/ 1258 م إلى 923هـ/1486م).

[8]- انظر الأصفهاني (علي بن الحسين) (ت356هـ/927 م): **الأغاني**، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الشعب،(دون مكان)، 1969، ج4،ص125 الذي أشار إلى دور الوجدان في تقبل المعاني بقوله:"خير المعاني ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه" نقلا عن القعود (عبد الرحمان): في الإبداع والتلقي الشعر بخاصة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلد 25، العدد4 أبريل/ يونيه1997، ص184

فلئن كان الأمر الأوّل يتعلّق بعملية القراءة، فإنّ الأمر الثّاني شديد الارتباط بضمائر القرّاء الّذين يتوجّه إليهم البيضاوي بالنّص، فهم ينتظرون خطابا بشريّا يشرح لهم مضامين الخطاب الإلهيّ ويفسّره، وهو ما يجعل من اختيار عنوان للكتاب أمرا شديد التّعقيد يتطلّب بالضّرورة وضع العنوان في أغلب الأحيان بعد الانتهاء من وضع متن الكتاب، أو تعهّد الاختيار الأوّل بالمراجعة والتّعديل كي يتناسب مع محتوى المتن.

إلاّ أنّنا مع البيضاويّ، نجد أنفسنا إزاء وضع طريف، إذ يتمّ وضع العنوان قبل الشّروع في التّأليف، من ذلك ما أورده في خطبة الكتاب، بقوله: "ناويا أنْ أسمّيه بعد أنْ أتمّمه بأنوار التّنزيل وأسرار التّأويل."[9]

والسّؤال الّذي يطرح نفسه في هذا المجال لماذا يصرّح البيضاويّ بذلك للقرّاء؟ ألاَ يكون بذلك يشير إلى أنّ العنوان قطب التّأليف والكتابة وركنها الرّئيس؟ ألاَ يكون بذلك نصّ المتن نصّا شارحا للنّصّ المقدّس ولنصّ العنوان في الآن نفسه؟ وإذا ما صحّ ذلك، هل يمكن بعد الآن اعتبار العنوان شكلا من الأشكال الحافة أو المصاحبة للنصّ؟ هل العنوان عتبة Seuil نلج من خلالها عالم النص، أم هو إعلان عن بضاعة L'annonce حسب عبارة بارت Barthes[10] أم هو نصّ مستقلّ متّصل بغيره في الآن نفسه يحتاج إلى نصوص تشرحه؟

إنّ نصّ العنوان ليس نصّا محيلا على نصّ المتن وليس ملصقًا إشهاريّا، وليس محطة عبور تصل القارئ بالنّصّ، إنّه نصّ مستقلّ بذاته يحتاج إلى نصوص تشرحه، وأوّل تلك النّصوص نصّ المتن الّذي من شأنه أنْ يجعلنا ندرك "أسرار التّأويل"، ونقف على "أنوار التّنزيل" فلئن كانت "أنوار التّنزيل" هبة الله لعباده، فإنّ كشف "أسرار التّأويل" ليس فعلا دالا على منّة الله على العلماء الرّاسخين فحسب، وإنّما هو دال أيضا على منّة العلماء على القرّاء.

فالعنوان بذلك دال على انتماء صاحبه إلى طبقة العلماء الرّاسخين، كاشفا عن صلة فعل التّفسير - بما هو آلية من آليات القراءة البشريّة للنّصّ المقدّس - بالفعل الإلهيّ / التّنزيل، فإذا بالفعل البشريّ امتداد للفعل الإلهيّ، وكأنّنا بهما متلازمان ملازمة جملة جواب الشّرط لجملة الشّرط، إذا تعذّر حدوث الأولى انتفت الثّانية.

إنّ وقوفنا على "أسرار التّأويل" يتطلّب منّا - نحن القرّاء - جعل نصّ المتن نصّا مقروءا، على أنّ وجوه الإحالة الّتي يُمارسها نصّ العنوان لا تقتصر على الإحالة على متن الكتاب، بل تتجاوزه لتطول نصوصا أخرى،أهمّها نصّ"أسرار التّنزيل وأنوار التّأويل"[11] لفخر الدّين الرّازي (ت 606هـ/ 1209م).

[9]- انظر خطبة كتاب"**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**"، ص 3

[10]- Voir Barthes (Roland): L'aventure Sémiologique, Seuil, Paris, p 33

[11]- انظر الرازي (فخر الدين): **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت لبنان،1990، إذ ذكر الشيخ خليل الميس في مقدمة التفسير أنّ للرازي كتابا بعنوان "أسرار التنزيل وأنوار التأويل" أمّا الحموي (ياقوت) (ت 626هـ/1229م): معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى

إنّه لمن الصّعب الإقرار بأنّ هذا التّقارب بين عنوان كتاب الرّازي وعنوان كتاب البيضاويّ هو محض صدفة، ذلك أنّ الرّازي مثّل علامة مميّزة ذاع صيتها في ديار الإسلام شرقا وغربا،[12] وأيّا كان الأمر، فإنّ التّشابه الحاصل بين العنوانين جليّ، فهما يشتركان في جميع المجالات من صيغ صرفيّة وتراكيب نحويّة ومفردات...، على أنّ الاختلاف الوحيد بينهما يتمثّل في رتبة المضاف في المعطوف عليه والمعطوف؛ فلئن جعل الرّازي الأسرار مضافا للتّنزيل والأنوار مضافا للتّأويل، فإنّ البيضاويّ قلب الآية بأنْ جعل "الأنوار" بدلا من" الأسرار" ووضع "الأسرار" موضع "الأنوار".

إنّ هذا الاختلاف دال على تباين بين الرّجلين في تحديدهما لماهية التّنزيل والتّأويل؛ فالرّازي اعتبر الوحي موطن الأسرار ومصدرها، في حين كان الفعل البشريّ أنوارا تكشف ما غَمُضَ من الأسرار الإلهيّة لعامة المسلمين.

إنّ ما يلفت الانتباه في عنوان الرّازي أنّ مقصده يظلّ مقصدا بإمكان القارئ تبيّنه بشكل من الأشكال؛ فبإمكان القارئ أنْ يجد منطقا ناظما يحكم العلاقات الّتي تربط بين مكوّنات العنوان، فهو يستسيغ نعت التّنزيل بالسّرّ، ذلك أنّ الوحي فعل إلهيّ مفارق[13] قابل لجميع الاحتمالات والفرضيّات من وضوح وغموض، وفي المقابل كان يتعمّد البيضاويّ إرباك القرّاء بنسبته "الأسرار" إلى الفعل البشريّ "التّأويل"، فنسبة "الأسرار" إلى العليّ أمر لا يثير القارئ قدر إثارة نسبتها إلى البشر.

لقد ترسّخت في أذهاننا بديهيّات عديدة - بطريقة غير واعية- أهمّها أنّ الإنسان يعتبر نفسه عارفا بذاته معرفة مطلقة لا يحتاج معها إلى السّؤال. أمّا الله - وإنْ كان قريبا من عباده - فهو عصيّ على الفهم، سرّ في ذاته لا يُستطاع شرحه، فكيف يتحوّل الإنسان من الوضوح إلى الغموض؟ وكيف يغدو السّرّ نورا؟ أي كيف ينقلب من الغموض إلى الوضوح ومن المجهول إلى المعلوم؟ وكيف ينقلب الغامض في ذاته إلى وضوح لا يحتاج معه إلى كشف أو استدلال؟ أليس الأمر مثيرا؟

معرفة الأديب، تحقيق إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي،ط1، بيروت لبنان،1993، في الجزء السادس في الترجمة عـ1094ـدد في الصفحة 2589 يشير إلى أنّ للرازي كتابا بعنوان" أسرار التنزيل وأخبار التأويل".

[12]- أشار ابن خلدون(عبد الرحمان) (ت808هـ/1405م) : **المقدمة**، تقديم وتحقيق جمعة شيخة، الدار التونسية للنشر،ط3، تونس 1993،ص 554 إلى مطالعة البيضاوي لبعض مؤلّفات الرّازي. وفي هذا السياق ذهب الشيخ محمّد الفاضل بن عاشور في "التفسير ورجاله"، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة مصر، 1970،ص94 ص95 إلى القول "قد أصبح كتاباً [يقصد كتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل] عميق الغور،صعب المراس، ثري المطاوي، محتاجاً تقريره إلى الرجوع إلى موادّه، وبخاصة أصليه العظيمين: تفسير الزمخشري وتفسير الرازي".

[13]- أنظر ما ذكره الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله) (ت794هـ): **البرهان في علوم القرآن**، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت لبنان،1988، مج1، ص 229 ص230، من اختلاف العلماء المسلمين في مصدر القرآن في ما يتعلق بعلاقة اللفظ بالمعنى.

مكمن الغموض الآسر في العنوان ماثل في عبارة "الأسرار"؛ فالبيضاويّ - على ما يبدو كان واعيا بمنزلة القارئ - فعلى العنوان أنْ يكون سرّا غامضا[14] مثيرا لا يتسنّى لأيّ كان إدراكه، ولن يكون العنوان آسرا لقرّائه إلاّ بإغراقه في المجاز.

إنّ عنوان الرّازي، وإنْ قام على المجاز يظلّ أقصر باعا في هذا المجال من عنوان البيضاويّ؛ فالقارئ يدرك- بطريقة واعية أو غير واعية - أنّ الوحي سرٌّ في بعد من أبعاده، وبإمكانه أنْ يرى في "أنوار التّأويل" معنى الكشف المنوط بالعلماء. أمّا أنْ يدرك سرّ التّأويل، فذلك أمر عسير يدعو إلى قراءة نصّ المتن والتّمعن فيه.

إنّ نصّ العنوان لدى البيضاوي في صلته بالمرجعيّات المُشكّلة له يستدعي نصوصا أخرى، في مقدّمتها نصّ الرّازي، وهو يعقد مع النّصّ المقدّس صلات عديدة في مستوى المفاهيم (التّنزيل-التّأويل) والخصائص الأسلوبيّة (الفاصلة)، وهو على صلة متينة بواقع الكتابة في عصر المُؤلِّف. أمّا عن صلته بالقرّاء، فالعنوان يُحاول أنْ يُمارس على قُرّائه سلطة توجيهيّة بإثارة الفضول فيهم وإطراب الآذان - بما يتوفّر فيه من شحنة إيقاعيّة-[15] غايته في ذلك سلب العقول وجعل الوجدان الآلية الرّئيسة في عمليّة القراءة والمدخل الأوّل والوحيد لعالم النّصّ.

خطبة الكتاب بين سلطة النّصّ المقدّس وسلطة الواقع المعرفيّ:

إنّ البيضاويّ لا يتّخذ مقدّمة الكتاب للكشف عن منهجه في التعامل مع المرويّات والأسانيد،[16] بل كانت بالأساس مجالا، وضّح من خلاله رؤيته الخاصة بعلم التّفسير، إذ نجده يركّز على جوانب متعلّقة بشخصيّة

[14]- ذهب الصّابي (أبو إسحاق) (ت384هـ) إلى القول بأن"أفخر الشّعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة منه"، فأبو إسحاق أشار إلى دور الغموض في ترغيب المستمع أو القارئ في القصيدة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى غيرها من ضروب الخطابات والنصوص، [نقلنا الشّاهد عن عبد الرحمان القعود"في الإبداع والتلقي الشعر بخاصة"، ص178، (مرجع سبق ذكره)].

[15]- ذكر ابن طباطبا العلوي (محمد بن أحمد): **عيار الشعر**، تحقيق طه الحاجزي ومحمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، القاهرة مصر، 1956، ص15 أنّ"للشعر الموزون إيقاع[ا] يَطرب الفهم لصوابه ومايرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه"، وهي ملاحظة في تقديرنا تنطبق على كل خطاب تتوفر به هذه الجوانب الإيقاعية بصرف النظر عن ماهيته وجنسه(الشعر،النثر...).[نقلنا الشّاهد عن عبد الرحمان القعود"في الإبداع والتلقي الشعر بخاصة"، (سبق ذكره)].

[16]- راجع الصفحة الثالثة من خطبة كتاب **"أنوار التنزيل وأسرار التأويل"**، وفيها يقول البيضاوي: "[هذا كتاب] يحتوي على صفوة ما بلغني من عظماء الصحابة وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين"، وقد وردت هذه الإشارة بصورة عابرة وسريعة، ولكنّها تبيّن لنا سطوة السلف ومنزلتهم في تصور المفسّر.

المُفسّر، وما يجب أنْ يتوفّر فيه من حذق للعلوم الدّينيّة وعلوم العربيّة، مبرزا منزلة التّفسير؛[17] فهو"رئيس العلوم الدّينيّة ورأسها [وهو] أرفعها شرفا".[18]

على أنّ ما يلفت الانتباه في خطبة البيضاويّ في المستوى المضمونيّ إشارته إلى ما كابده من صعوبات وما اعترض سبيله من مشاق، موضّحا ما يميّزه عن غيره من المُفسّرين من إلمام بعلوم القرآن الكريم ومن سعة إطلاع، اكتسبهما في سنين طوال أمضاها في جمع المعروف المُتداول والمهجور المتروك من قراءات و روايّات...[19]

ولا يخفى على قارئ الخطبة نزوع المُؤلّف إلى الإعلاء من ذاته، من ذلك قوله: "[فيه] نكت بارعة ولطائف رائعة استنطقتها أنا ومن قبلي من أفاضل المُتأخّرين،"[20] وهو يصرّح بأنّه استمدّ من الذّات الإلهيّة القدرة والمعونة والرّشاد. أمّا في المستوى الأسلوبيّ، فإنّنا نتبيّن الحضور المكثّف للمعجم القرآنيّ، ففي خطبة الكتاب تكثر وجوه الاقتباس من النّصّ المقدّس (ليتدبّروا آياته/ليتذكّر أولوا الألباب/ ألقي السّمع، وهو شهيد/ هنّ آيات محكمات...)، وهو إلى جانب ذلك استخدم مصطلحات وعبارات تحوم حول الغموض والخفاء من قبيل قوله: "كشف غوامض الحقائق ليتجلّى لهم خفايا الملك والملكوت"،[21]على أنّ سلطة النّصّ المقدّس لا تخفى علينا ما يسايرها من سلطة للواقع المعرفيّ، -لا سيما في الجانب الأسلوبيّ- إذ كثر في الخطبة توظيف السّجع، إذ لم تخل منه فاصلة، وقد حرص البيضاويّ على استعمال المصدر- مفعول مطلق في أغلب الأحيان-المشتق من عين جذر الفعل/المسند في الجملة(سحروا تسحيرا، يطهرهم تطهيرا، ليتذكر...تذكيرا، يتفكروا فيها تفكيرا، سلم...تسليما،....)

إنّ خطبة البيضاويّ من هذا المنظور ليست بيانا للمنهج، بل هي محاولة لكسب ودّ القرّاء؛ فهي تَعِدُ بكنوز لم يَسبق البيضاويّ إليها أحد من المُفسّرين السّلف، وهي توهمنا بأنّنا إزاء تفسير شامل مانع جامع لكلّ ما أورده السّلف، وهي توهم بأنّ صاحبها تجاوز أخطاء السّابقين، وهي تعلن متانة الصّلة بين تفسير البيضاويّ والنّصّ المقدّس، على أنّ أهمّ عنصر كشفت عنه الخطبة، تحديد المُفسّر مجال التّفسير والتّأويل بأنّه المتشابهات

---

[17]- بيّن محمّد الفاضل بن عاشور منزلة التفسير عند البيضاوي بالإشارة إلى تمكّن الشيرازي من العلوم اللغوية والفقه والمنطق وعلم الكلام، وقد عدّد آثاره كتاب "**طوالع الأنوار**" في علم الكلام وهو مشهور شهرة ذائعة، وكتاب "**الصباح**" في الكلام أيضاً مشهور مشروح، وكتاب "**المنهاج**" في أصول الفقه، واسمه: "**منهاج الوصول إلى علم الأصول**"، وهو عظيم الشهرة، واسع الرواج". انظر **التفسير ورجاله**، (سبق ذكره)، ص 91

[18]- انظر خطبة كتاب "**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**"، ص 3

[19]- بيّن الفاضل بن عاشور في "**التفسير ورجاله**"، (سبق ذكره)، ص92 أنّ القاضي الشيرازي قد ألّف "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" في المرحلة الأخيرة من حياته، وهي "حقبة الاستقرار في تبريز، بعد الانتقال إليها من شيراز [...] وبذلك يكون تأليف تفسير البيضاوي في النصف الثاني من القرن السابع بمدينة شيراز".

[20]- انظر خطبة كتاب"**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**"، ص 3

[21]- المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

بقوله:"فكشف لهم [الله]قناع الانغلاق عن آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات هنّ رموز الخطاب تأويلا وتفسيرا"[22]- ومن الواضح أنّ البيضاويّ لم يكن يميّز بين التّفسير والتّأويل.[23]

إنّ مجمل هذه الملاحظات المتعلّقة بالجانب المضموني والجانب الأسلوبي لخطبة الكتاب، تبرز لنا سطوة النّصّ المقدّس، وتبيّن لنا مدى انشداد المُفسّر إلى كلّ ما هو خفي غامض، فلئن سَلّمَنَا نصّ العنوان إلى نصّ الخطبة علّنا نستطيع تبيّن "سرّه"، فإنّ نصّ المقدّمة/خطبة الكتاب يُسلّمُنا إلى نصّ المتن علّنا ندرك "خفايا الملك والملكوت".[24]

إنّ خطبة الكتاب على قصرها، نهضت بجملة من الوظائف المهمّة لعلّ أبرزها شدّ القرّاء؛ فهي تثير في البعض منّا رغبة التّحدي، - ذلك أنّ المُؤلّف صرّح دون مواربة بتفوّقه -، أوهي تدفعنا إلى تبيّن مظاهر التّفوّق، بيد أنّ للخطبة وظائف أخرى تتجاوز هذه الوظيفة، فهي تحدّد للقرّاء مجال الكتابة وتقدّم لهم لمحة خاطفة مصغّرة عمّا يمكن أنْ يتعرّضوا له أثناء قراءة نصّ المتن، وهو أمر من شأنه أنْ يجعل قراءة المتن تخضع لتصوّر قبليّ افتراضيّ في مستوى الأحكام والمعاجم...، وهو بذلك يكون عقد بشكل خفيّ مع القرّاء ميثاقا Pacte de lecture ينظّم عمليّة القراءة.

نصّ المتن بين سلطة النّصّ المقدّس وسلطة الواقع المعرفيّ:

لقد كانت صفة القداسة الملازمة للوحي تلقي بثقلها على المُفسّر؛ فهو واع بأنّه لا يُفسّر خطابا بشريّا، بل إنّه يشتغل بالخطاب الإلهيّ المقدّس الّذي يَتأسس على الحقيقة المطلقة، وفي ما يتصل بهذه المسألة، فإنّ المفسر لا يبني قراءاته للنّصّ المقدّس بعيدا عن تصوّراته للوجود والعلاقات الرّابطة بين أطرافه...، على أنّ مكمن الخطر في ذلك أنّ المُفسّر بات يعتقد اعتقادا راسخا أنّ تصوّراته تمثّل الحقيقة المطلقة، ومن هذا المنطلق أصبح يبحث في النّصّ المقدّس عمّا يدعّم آراءَه ومواقفه.[25] بيد أنّ بلوغ مقاصد الإله ومعانيه يظلّ - في تصوّره - أمرا عسيرا، ويبدو أن ّوعي المُفسّرين بما يجابههم من صعوبات منهجيّة أمر متفاوت الدّرجات من مُفسّر إلى آخر، وقد تجلّى ذلك في أمرين: أوّلهما تعامل المُفسّر مع النّصّ المقدّس؛ وثانيهما ما يُفصح عنه أو يخفيه أثناء صياغته لبيانه التّفسيريّ Manifeste Exégétique.

---

[22]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[23]- التّفسير في عرف أهل اللغة إبانة "وكشف للمراد عن اللفظ الُمشكل [وهو] توضيح معنى الآية وشأنها وقصّتها والسّبب الّذي نزلت فيه"، فالمفسر على ضوء هذه المعطيات يبين للعامة ما غمض عندهم وكان لديه واضحا جليا لا لبس فيه، أمّا التأويل فعملية ذهنية تتطلب من المؤول"صرف الآية عن معناها الظاهر إلى معنى يحتمله"، فالتأويل تدبر وتقدير ومحاولة لاستعادة الوضع التبليغي الأوّل بتبين الخصائص السّياقيّة التي نشأ فيها الخطاب القرآني، وذلك بالنظر في الدلالات الخفيّة الكامنة وراء التّعابير المجازيّة والخصائص التركيبية والأبعاد التداولية للعبارة القرآنية.-التعريفات الواردة في هذا الهامش مأخوذة عن الجرجاني (الشريف) (ت816هـ/1413م):**التعريفات**، مكتبة لبنان، بيروت لبنان، 1978، ص 65 وص 52

[24]- انظر خطبة كتاب "**أنوار التنزيل وأسرار التأويل**"، ص 3

[25]- انظر أركون(محمد): **الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد**، تعريب هاشم صالح، دار الساقي، لندن أنجلترا،(د ت)، ص 94

وفي ما يلي، نحاول تبيّن هذه الأبعاد بالنّظر في تفسير البيضاويّ لبعض الآيات القرآنيّة، وفي هذا المبحث نعمد إلى تبيّن أهمّ الخلفيّات المُتحكّمة في عملية قراءة المُفسّر مع الوقوف على درجة وعيه بسلطة هذه المرجعيّات من جهة، ومن جهة أخرى نسعى إلى النظر في مظاهر سلطة النّصّ المقدّس في نصّ البيضاويّ، وكيف كان البيضاويّ مشدودا إلى أفق الثّقافة الشّفويّة ـ الخطاب القرآنيّ ـ، وما واجهه من صعوبات تتعلّق بهذا الجانب، على أنّنا قبل المُضي في تقصّي هذه الأمور، نودّ لفت الأنظار إلى أنّنا نعمد بين الحين والآخر إلى الوقوف بصورة موجزة على طبيعة النّصّ المقدّس، لما لهذه المسألة من أهمّية في الإلمام بالجوانب الرّئيسة للمبحث.

نماذج من تفسير البيضاويّ:

علّق البيضاويّ على قوله تعالى: "وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"،[26] بقوله: "(والله يضاعف) تلك المضاعفة (لمن يشاء) بفضله، وعلى حسب المُنفق من إخلاصه وتعبه ومن أجل ذلك تفاوتت الأعمال في مقادير الثّواب."[27]

إذا ما دقّقنا في تفسير البيضاويّ لهذه الآية، ألفيناه متردّدا في نسبة الضّمير في فعل "يشاء"، فهو يصرّح بأنّ الله الفاعل من جهة، ويشير إلى أنّ الله يضاعف الثّواب للإنسان الّذي يشاء أن يُضَاعَفَ له، وذلك وفق أعماله المكتسبة من جهة أخرى.[28]

إنّ جعل الفعل الإلهيّ مقترنا بالفعل البشريّ وما يبذله الإنسان من جهد، ـ وإنْ كان دالا على العدل الإلهيّ ـ، فإنّه يُقيّد الإرادة الإلهيّة التي تصبح تابعة للإرادة البشريّة؛ فالعلاقة الّتي تجمع بينهما هي علاقة الصّدى بالصّوت، وهو أمر يتضارب مع تصوّر البيضاويّ للإله وأفعاله وإرادته، ومن أجل ذلك عمد إلى حلّ وسط لا يحجب عنّا الحرج الّذي كان يشعر به المُفسّر لحظة وضعه تفسيرا لهذه الآية، فتصوّره للإله الحرّ الّذي يفعل ما يريد، وكيف ما يريد، وحيث ما يريد، وبالطّريقة الّتي يريد...، على النّحو الّذي نجده في قوله تعالى: "إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ"،[29] يتعارض مع تصوّره للإنسان بما هو كائن مستخلف في الأرض مُطالب بتعميرها وإحسان التّصرف فيها يجعله يقرّ بدور المخلوق في مضاعفة الأجر والثّواب؛ أيْ كسب أفعاله وتحديد مصيره.

---

[26]- انظر البقرة 261/2

[27]- انظر البيضاوي(عبد الله بن عمر): **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (سبق ذكره)، مج1، ص 138

[28]- إنّ موقف البيضاوي يذكّرنا بما ذهب إليه أبو الحسن الأشعري (ت324هـ/935م) في ما يتعلّق بالكسب؛ فأبو الحسن رأى أنّ العبد مكتسب للفعل على جهة القدرة الحادثة الّتي يخلقها الله فيه، على أنّ موقف البيضاوي يظل دون موقف الأشعري في تماسكه المنطقي وفي مستوى التحليل والاستدلال.

[29]- انظر المائدة 118/5

إنّ هذين الطّرحين المتقابلين كانا يتجاذبان فكر البيضاويّ؛ فجاء تفسيره للآية مضطربا يوهم بوجود وشائج قربى بين الإرادة الإلهيّة والإرادة الإنسانيّة، مقدّما الإرادة الإلهيّة الحرّة على الإرادة الإنسانيّة،[30] ويتّضح ذلك في مواضع عديدة من متن التّفسير، ومنها ما أورده في تعليقه على الآية الثّامنة والأربعين من سورة النّساء، إذ نسب الفعل نفسه "يشاء" إلى الله دون تردّد، وذلك بقوله:" يغفر الله لمن يشاء تفضّلا عليه وإحسانا"،[31] مُؤاخذا المعتزلة على موقفهم معتبرا إيّاه مجانبا للصواب، ذلك أنّ طرحهم"فيه تقييد بلا دليل، إذ ليس عموم آيات الوعيد بالمحافظة أولى منه[...] فإنّ تعليق الأمر بالمشيئة يُنافي وجوب التّعذيب قبل التّوبة والصّفح وبعدها؛ فالآية كما هي حجّة عليهم[المعتزلة]، وهي حجّة على الخوارج."[32]

إنّ عدول البيضاوي في تفسيره لهذه الآية عمّا أثبته من قبل- بصورة ضمنيّة- يجعله يرفض رفضا صريحا الطّرح الاعتزالي القائل بأنّ "الله يغفر لمن يشاء ممن استوجب المغفرة بالتّوبة ممّا أظهر أو أضمر ويعذّب من يشاء لمن استوجب العقوبة بالإضرار".[33]

ولكنّ السّؤال الّذي يُطرح في هذا المستوى من التّحليل، كيف يرفض البيضاويّ موقف المعتزلة في حين أقرّه من قبل؟ ولماذا؟هل المسألة نتيجة اضطراب؟ وإنْ كان الأمر كذلك، لماذا لم يتعهّد البيضاويّ أحد التّحليلين الواردين في الآيتين سابقتيْ الذّكر بالمراجعة والتّعديل والتغيير والتحوير؟

إنّ المسألة في تقديرنا تعود إلى طبيعة لحظة الكتابة؛ ففي تفسيره للآية البقرة 261/2 كان المُفسّر مسكونا بالسّؤال عن منزلة الإنسان وقدرته على كسب مصيره، لذلك كان حريصا على إبراز هذا البعد دون أنْ ترتقي قراءته إلى التّصريح والجهر شأن المعتزلة/ القدريّة[34] الّذين أسسوا بوضوح مذهبا جديدا "في صيغة العلاقة بين الله والإنسان [فكانت محاولتهم] محاولة جريئة لإعادة نوع من التّوازن بين عالميْ الغيب والواقع"،[35] في حين كان المُفسّر لحظة تفسيره للآية الثّامنة والأربعين من سورة النّساء واقعا تحت سطوة أمرين هما: قداسة

[30]- ذهب جماعة من القدامى (جلال الدين السيوطي،...) والمعاصرين (محمّد الفاضل بن عاشور، محمّد حسين الذهبي،..) إلى القول إنّ اعتماد البيضاوي على تفسير الزمخشري لم يقتصر على جمع أفكار شيخ المعتزلة بقدر ما أضاف عليها.- راجع في هذه المسألة ابن عاشور(محمّد الفاضل) التفسير ورجاله،(سبق ذكره)، ص93، والذهبي (محمّد حسين) التفسير والمفسرون، (سبق ذكره)، ج1، ص196 - وهو تصوّر يصعب الإقرار به- في تقديرنا-، في ضوء ما بيّن من وجوه تأثّر البيضاوي بالزمخشري.

[31]- انظر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، مج1، ص 218

[32]- انظر المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

[33]- الزمخشري (أبو القاسم محمود) (ت534هـ أو538هـ): **الكشّاف في حقائق التنزيل وعيون التأويل**، تحقيق يوسف الحمّادي، مكتبة مصر، القاهرة مصر، (د ت)، ج1، ص 292

[34]- لقد سوّى البغدادي (عبد القاهر) (ت 429 هـ/1037م) في "الفَرق بين الفِرق"، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت لبنان،2005، في الصفحة التاسعة والسبعين بين المعتزلة والقدرية، وفي المقابل أشار بعض المعاصرين إلى أنّ "القدرية لم تكن فرقة قائمة بذاتها -شأنها في ذلك شأن الحشوية- واضحة المعالم لها مبادئ ثابتة يلتف حولها أتباعها، بل كانت مجرد حركة تضم خليطا من المسلمين جمعهم القول بمسؤولية الإنسان عن أفعاله خيرها وشرها باعتباره مخيّرا في القيام بها، ولم تكن مسألة الجبر والاختيار جديدة بل كانت باستمرار محل تساؤل من قبل المسلمين" انظر البكّاي (لطيفة): حركة الخوارج نشأتها وتطورها إلى نهاية العهد الأموي، دار الطليعة، ط1، بيروت لبنان، 2001، ص 251

[35]- انظر، خوجة(أحمد): **الله والإنسان في الفكر الإسلامي**، منشورات عويدات ومنشورات البحر المتوسط، ط1، بيروت لبنان،1983، ص 110

النّصّ (المصحف) الّذي أعلى من شأنه الإله، وهي قراءة شاعت بين عامة المسلمين لما توفّره من طمأنينة تحتاجها وتجعل من أبواب الجنّة مفتوحة على مصراعيها للخطاة والعصاة... - من جهة، وسطوة الانتماء المذهبيّ الكلاميّ من جهة أخرى؛ فرفض البيضاويّ للموقف الاعتزالي ليس وليد نظرته للإنسان ومنزلته في الوجود، ولكنّه رفض ناتج عن وضوح موقفهم الّذي يقصي الإرادة الإلهيّة بشكل لا يقبل التّأويل أو الاجتهاد في التّفسير،[36] وهو ما لم يستطع البيضاويّ التّصريح به، وتجلّى ذلك في تضحيته بالإرادة الإنسانيّة في سبيل الإعلاء من شأن الإرادة الإلهيّة، ولكنّها تضحية لا تنفي عدم اقتناعه بذلك - أيّ بما صرّح به -.

وفي هذا الإطار تبدو محاولة المُفسّر استعادة الوضع التّواصليّ الأوّل – أيْ لحظة تبليغ الرّسول صلى الله عليه وسلم الوحي لأتباعه- محاولة غامضة، إذ لا يُعقل أنْ يكون الرّسول صلى الله عليه وسلم عند تلاوته لهذه الآية أو غيرها مكتوف اليدين ثابت الملامح لا يُبدي حراكا؛ فنحن نعلم "أنّ كيفيّة التّلفظ وهيأة المُتكلّم [...] كلّها عناصر ليست غريبة عن النّصّ في الثّقافة الشّفويّة"[37] فحركة اليد أو العين أو تقاسيم الوجه من شأنها أنْ ترفع أيّ لبس قد يقع فيه المُتلّقي، زد على ذلك أنّه لا يعقل أنْ يحرّك الرّسول صلى الله عليه وسلم العضو الواحد من جسمه بطريقتين مختلفتين في عين الآية أو في غيرها من الآيات الّتي تحتوي على فعل "يشاء"، فلا يمكن لِيَدِهِ أنْ تتّخذ حركة عموديّة (إلى الأعلى) وفي الآن نفسه تتحرّك أفقيّا باتجاه المؤمنين.

إنّ البيضاويّ لا يحاول استرجاع هيأة الرّسول صلى الله عليه وسلم وطريقة تلفظه بالوحي، بقدر ما كان يحاول رسم صورة للرّسول صلى الله عليه وسلم وهيأته على النّحو الّذي يتماشى مع تصوّره (البيضاويّ) لمنزلة الإله ولمنزلة الإنسان، ذلك أنّ "لا شيء في القول يمنع من اعتماد [... التّأويل الاعتزالي] الّذي يظلّ أمرا ممكنا للآية"،[38] فمن أين أتى البيضاويّ بهذا اليقين الّذي يجعل من القراءة الاعتزالية فاقدة للمشروعيّة!

إنّ وقوفنا على بعض تفسيرات البيضاويّ لهاتين الآيتين، كشف لنا عن الاضطراب الواضح الّذي كان يعيشه المُفسّر، فهو ممزّق بين موقفين لهما ما يبرّر حضورهما، ولهذا الاضطراب ما يفسّره، فلئن كان المُفسّر في أثناء تفسيره الآية الحادية والسّتين بعد المائة من سورة البقرة مسكونا بهاجس معرفيّ، فإنّه في تفسيره للآية الثّانية؛ أيْ الآية الثّامنة والأربعين من سورة النّساء، كان خاضعا لسلطة المقدّس وللالتزامات المذهبيّة الّتي تحتّم عليه رفض مقولات الفرق الأخرى.

---

[36]- إن الموقف القدري الاعتزالي نفى نفيا قاطعا أنْ يكون فعل العبد مخلوقا فيه على غير إرادته، وقد مثل هذا الطرح خطرا على السلطة الأموية، وهو الأمر الذي دفع بالخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ت86هـ/705م) إلى قتل معبد بن خالد الجهني (ت80هـ/699م) أحد أبرز أعلام القدرية، فظاهر الخلاف عقائدي ولكنّه سياسي في جوهره.

[37]- انظر المسعودي (حمادي): **الوحي من التنزيل إلى التدوين**، دار سحر، ط1، تونس، 2007، ص 18

[38]- انظر ألفة (يوسف): **تعدد المعنى القرآن**، دار سحر،ط1، تونس،2003، ص 48

إنّنا نستبعد أنْ يكون البيضاويّ جاهلا بهذه العوائق المتعلّقة بالطّبيعة الشّفويّة للوحي، وهو ما يكشف عنه تفسيره لقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مَّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ [.....] وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ....".[39]

وموطن اللبس فيها يتمثّل في موضع الوقف،[40] ويبدو أنّ البيضاويّ كان واعيا بأبعاد هذه المسألة، فهو يعلّق على الآية بقوله :"وما يعلم تأويله الّذي يجب أنْ يُحمل عليه إلاّ الله والرّاسخون في العلم أيْ الّذين ثبتوا وتمكّنوا فيه ومن وقف على إلاّ الله فَسَّرَ المتشابه بما استأثر بعلمه كمدّة بقاء الدّنيا ووقت قيام السّاعة".[41]

إنّ تفسير البيضاويّ لهذه الآية، جعل من الوقف حاصلا عند "العلم"، ويترتب على ذلك اعتبار فعل "يعلم" عائدا على فاعلين هما الله والعلماء الرّاسخون، في حين أنّ الّذين وقفوا عند "الله" يقصُون العلماء من دائرة العلم بالمتشابه على عكس ما أوهمنا به البيضاويّ، إذ زعم بأنّ الوقف عند "الله" لا يمنع من اعتبار العلماء الرّاسخين في العلم قادرين على التّأويل، وفي سبيل ذلك راح يميّز بين ضربين من ضروب المتشابهات، الأوّل لا يعلمه إلاّ الله (مدّة بقاء الدّنيا/ السّاعة)، والثّاني يتقاسم معرفته الله والعلماء الرّاسخون؛ ففي تصوّر البيضاويّ أيّا كان موضع الوقف، فإنّ للعلماء القدرة على معرفة المتشابه.

إنّ وعي البيضاويّ بإمكانيّة الوقف عند "الله" وما يترتّب عليه من نتائج من شأنها أنْ تنسف مشروعيّة تفسيره بوصفه تأويلا للمُتشابهات، وهو أمر جعله يغرق في التّأويل، فإذا ما صحّ أنّ الوقف حاصل عند "الله"؛ فإنّ الواو تصبح "واو" استئناف، ومن ثمّة نكون إزاء نواتين إسناديتين منفصلتين لا يربط بينهما إلاّ حرف "الواو" الدّال على الجمع؛ فالمُفسّر عندما جعل من الرّسول صلى الله عليه وسلم يقف عند "في العلم" بدلا من الوقف عند "الله" لا دليل له ولا برهان على صحّة مذهبه غير ما يعتقده، فإذا بالعقيدة تحلّ محل الحقيقة.

إنّ وقوفنا على هذه النّماذج كشف لنا عن عسر مهام المُفسّر في ظلّ فقدانه لحظة التّبليغ الأولى، ذلك أنّ معرفة" كيف استقبل الصّحابة النّطق بالقرآن لأوّل مرّة من قِبل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم [غير ممكنة]، فطريقتـ[ـه] في الإلقاء [أي التّلاوة] لا يمكن أنْ تُعاد".[42]

معنى ذلك أنّ كلّ قراءة تفسيرا أو تأويلا هي محاولة لاستعادة الوضع التّبليغيّ الأوّل على وجه الافتراض لا على جهة اليقين والتّحقق، على أنّ ما يظلّ أمرا قائما ذلك الالتباس الدّال على عجز المُفسّر عن أمرين؛

---

[39]- آل عمران 7/3

[40]- عرّفه الزركشي (بدر الدين): **البرهان في علوم القرآن**، (سبق ذكره)، ج1، ص242 بأنّه "فن جليل وبه يُعرف كيف أداء القرآن [...] وبه تتبين معاني الآيات ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات".

[41]- انظر **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، مج 1، ص 149

[42]- لقاء مع محمد أركون أجراه ناصر الغيلاني، مجلة نزوى، العدد26، أبريل2001، مسقط/ سلطة عمان، ص 167

أوّلهما التّخلّص من سلطة النّصّ المقدّس وسلطة السّائد ثقافيّا وفكريّا وعقائديّا...؛ وثانيهما أنّه لم يستطع تقديم قراءة تعكس قناعاته الشخصيّة بصورة واضحة.

خاتمة:

إنّ ما نخلص إليه بعد هذه الوقفة على تفسير البيضاويّ(نص العنوان ونص الخطبة ونص المتن) أنّ المُفسّر لم يستطع الوعي بأنّ النّصّ المقدّس نصّ مفتوح على ما لا ينتهي من المعاني وبأنّ مقصده الأسمى التّعبير عن هواجس الإنسان؛ فهو نصّ يحمل في ثناياه أكثر ممّا يُظهر، زد على ذلك أنّ البيضاوي لم يدرك أنّ القراءة تفسيرا كانت أم تأويلا أم... هي تحرير له من سلطة النّصّ وتحرير للنّصّ من حدود المعنى، فكانت قراءاته أسيرة قداسة النّصّ الإلهيّ حينا،مشدودة إلى السّلف والواقع المعرفيّ حينا آخر.

إنّ النّصّ هو بالضّرورة "يحمل أكثر ممّا هو في ظاهره [إذ] ليست العناصر البيّنة فيه غير انعكاس للغائب منها، وهذا الغائب [ليس إلاّ] إمكانات يقترحها النّصّ على القارئ"[43]حينا، ويقترحها القارئ على النّصّ حينا آخر.

وفي هذا الإطار، يمكننا أنْ ننزّل عمل المُفسّرين القدامى، إذ حدّد كلّ واحد منهم غايته وهدفه بما يعكس الحاجات الّتي تفرضها اللحظة التّاريخيّة الخاصة بإنشاء متن التّفسير، ويبدو أنّ اكتشاف هذه الجوانب غير الواعية والخفيّة الّتي تتحكّم في الخطاب وتوجّه عملية القراءة (قراءة المُفسّر للنّصّ المقدّس) والكتابة (كتابة المُفسّر لمتن التّفسير) أمر عسير على المُؤلّف وقرّاء عصره، ذلك أنّ انتماءهم إلى زمن إنتاج الخطاب يحول دون إدراكهم للأنساق غير المنطوقة الّتي تتحكّم في النّصّ؛ فنحن إزاء وضع أشبه ما يكون بالّذي يحرّك الدّمى فوق الرّكح بواسطة خيوط دقيقة.

إنّ النّصّ المكتوب امتداد للواقع الفكريّ والنّفسيّ والاجتماعيّ الّذي نشأ فيه؛ فهو مظهر من مظاهر سلطة الواقع (العادات/الأعراف...) بصرف النّظر عن مصدره بشريّا كان أو إلهيّا؛ فالنّصّ المقدّس في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، يكشف عن صلته بواقع الحياة الجاهليّة من خلال اقترانه بأسباب النّزول،[44] وفي مقابل ذلك، نجد كلّ

[43]- انظر شبيل (الحبيب): **إبداع القراءة، ضمن كتاب النص والقراءة في الثقافة العربية الإسلامية**، منشورات مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، تونس، 1999، ص 137

[44]- راجع على سبيل الذكر السيوطي (جلال الدين) (ت 911هـ): **لباب النقول في أسباب النزول**، اعتنى به عبد المجيد طعمة حلبي، دار المعرفة، ط3، بيروت لبنان، 2000، والواحدي النيسابوري (علي بن أحمد) (ت 468 هـ): أسباب النزول، صححه محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت لبنان، 2000

قراءة تنطلق من مكتسبات وخبرات تفرض نفسها على القارئ مُكوّنة أحكاما مسبقة تسيّج عمليّة القراءة، فهو"لا يلج النّصّ الّذي يقرأ بفكر محايد".[45]

فلئن كان الواقع السّياسيّ والاجتماعيّ...، والنّصّ المقدّس مارسا على المُفسّر سلطة توجّه عمله، فإنّ هذه العلميّة تتّخذ شكلا جديدا، عندما يصبح نصّ التّفسير نصّا مُوجّها للقرّاء يمارس عليهم سلطة توجيه، ذلك أنّه يزعم امتلاك الحقيقة الإلهيّة ليُطالبنا بمقتضى ذلك الإقرار بقداسته؛ فكثيرا ما نُنزّل نصّ التّفسير منزلة النّصّ المقدّس في ضمائرنا، وفي ذلك مساواة بين النّصّين، فإذا الأوّل يمنح الثّاني دلالاته ويوضّح مقاصده، ففي حين يهب الثّاني الأوّل صفة القداسة، فإذا نحن إزاء نصّين مقدّسين، نصّ إلهيّ في لفظه ومعناه مجهولة دلالاته في أغلب الأحيان، ونصّ بشريّ ألفاظه إلهيّة أمّا معانيه ودلالاته فيُنشئها المُفسّر بهداية من الله.[46]

إنّ للنّصّ المقدس وضعا خاصا، فمنذ أنْ أُوحي به أصبحنا إزاء نصّين أوّلهما مكتوب صامت؛ وثانيهما نصّ مكتوب ملك للقرّاء الّذين يُمارسون عليه شتى أنواع التّأويل. أمّا القراءة، فهي مزدوجة: قراءة مفقودة لا يعلمها إلاّ باث الخطاب (الله في النّصّ المقدّس) وقراءة منجزة نؤثّثها وفق ميولاتنا، وبهذا تصبح القراءة عنصرا أصيلا نابعا من داخل النّصّ لا من خارجه (Extra - Textuel).

---

[45]- انظر شبيل (الحبيب): **إبداع القراءة**، (سبق ذكره)، ص 137

[46]- انظر ما ذكره في المقدمة من أمر الاستخارة، ص 3

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com